تجليات الاغتراب في ثلاثية (عبد الله صخي)

م.د. باسم محمّد عبّاس عبد الصميدعي

دكتوراه في الأدب العربي الحديث

رئاسة جامعة الأنبار/المكتبة المركزية

basim19781986@gmail.com

تهدف هذه الدراسة إلى مقاربة ثيمة الاغتراب واستكشاف تمظهراته التي تحرك مستويات الوعي والبنية الفكرية والشعورية للشخصيات؛ إذ شكّل هذا المعطى الإنساني في ثلاثية (عبد الله صخي) تياراً معرفياً وثقافياً هيمن على معطياتها واتجاهاتها الفكرية والفنية .

وقد اقتضى دراسة هذا النسق المعرفي والكشف عن تجلياته تناوله في مبحثين، الأول ينهض على دراسة وتأطير تجليات الاغتراب والإحاطة بأشكاله وتمظهراته، والثاني ينهض على تأصيل الأثر الفني والموضوعي للزمان والمكان في تشخيص ثيمة الاغتراب وتحديد الأبعاد النفسية والشعورية لتلك الشخصيات وأزماتها الذاتية والإنسانية.

الكلمات المفتاحية: تجليات: الاغتراب: ثلاثية: عبد الله: الصخي.

Manifestations of Alienation in Abdulla Sekhi's Trilogy

Dr.bassim mohammed abbas

Phd in Arabic literature

Al-anbar university-the central library

basim19781986@gmail.com

Abstract

This study aims to reconcile the theme of alienation with the exploration of its manifestations that provoke the characters' levels of awareness and intellectual and emotional structure. This human concept, in Abullah Sekhi's trilogy, has formed a cognitive, cultural mainstream that has dominated the trilogy's data and intellectual and artistic dimensions.

This study is divided into two sections: The first one is based on studying and framing the manifestations of alienation and discussing its forms and aspects. The second one is based on authenticating the work of art and subjectivity of time and place in determining the theme of alienation and the characters' psychological and emotional dimensions and their personal and human crises.

Key words: Abdulla sekhi, Alienation, Manifestations, Trilogy.

توطئة:

يمثل الاغتراب ظاهرة إنسانية وليدة ظروف قهرية سياسية واجتماعية وفكرية وأخلاقية، تنشأ في وعي الفرد وسلوكه عندما يرى أن الآخرين لا يواكبونه فكرياً وأن ثمة فجوة واسعة بينه وبين الأفراد المحيطين به، فيميل إلى التفرد والعزلة والقطيعة الشاملة عن مجتمعه وواقعه ويرتضي لنفسه وذاته عالماً خاصاً به يدور حوله، ليصبح الفرد المغترب وفق هذه المعطيات ((منفصلاً، انفصالاً حاداً لم يسبق له مثيل، سواء عن الطبيعة أو المجتمع، أو الدولة، أو الله، حتى نفسه وأفعاله.... فلم يعد قادراً على إقامة الجسور التي تصل بينه وبين هذا الآخر المختلف المظاهر والمتعدد الأسماء، وأصبح من ثمّ عاجزاً عن تحقيق ذاته ووجوده على نحو شرعي أصيل)) (رجب، 1993، ص 6) (Rajab,1993: p 6) .

سارت شخصيات ثلاثية (عبد الله صخي) بمعية عزلتها واغترابها عندما ارتضت لنفسها أن تنتهج نهجاً انفصالياً عن كل ما يُشعرها بهشاشتها وهامشيتها علّها تجد في تلك القطيعة ذاتها المستلبة بفعل التسلط الجمعي والسياسي والثقافي والفكري. إن شمولية القراءة والعرض المضموني والفني لأشكال الاغتراب وتجلياته في هذا النتاج الروائي حتّم أن يكون تصنيف هذه الظاهرة الإنسانية على وفق تأثيرها في الموقف السردي للأحداث والوقائع من جهة، ودورها في رسم وبلورة معاناة الشخصية، لا سيما أن الاغتراب يمثل تياراً يكاد

يكون مهيمناً على معطياتها واتجاهاتها الفكرية والنفسية والشعورية. لهذا تأسست هذه الدراسة على مبحثين حاولنا أن نؤطر من خلالهما ثيمة الاغتراب والوقوف على تجلياته وإدراك العلاقة الهشة بين الشخصية وعالمها المادي، وما اتسمت به سلوكياتها من تناقض وتعارض وتصادم ومن ثمّ شعور بالإحباط والضياع والاغتراب:

_ المبحث الأول: تجليات الاغتراب وتمظهراته.

_ المبحث الثاني: الزمان والمكان ودورهما في تجلي الاغتراب.

المبحث الأول: تجليات الاغتراب وتمظهراته:

1_ تجليات الاغتراب الذاتي:

تبرز ثيمة الاغتراب الذاتي عندما تتسع الفجوة بين الفرد والفكر الجمعي _فكرياً وثقافياً ومعرفياً ونفسياً_ فلا يجد سبيلاً إلا أن يكتفي بذاته فيغدو في تيه حقيقي بين ما يريده وما هو عليه، إنه ((ببساطة غير مدرك لما يشعر به حقيقة، ويحبه ويرفضه، ولما يكون عليه في الواقع)) (شتا: 167) (sheta: 167)، هذا التخبط المعرفي والفكري في وعي الفرد المغترب ذاتياً يجعله يحيا في هالة من المثالية المطلقة، فيتجلى مستويان من هذا النتاج الإنساني، الأول: المكتفي بذاته البعيد عن محور الجماعة، والثاني: يتجلى في تلك الذات المهمّشة اجتماعيا التي لا تجد لها حيزاً داخل المجتمع ولا تمتلك أدوات التعامل مع كينونتها ووجودها لينتهي بها الحال إلى اغتراب ذاتي عميق.

ثمة أزمات إنسانية ونفسية طغت على شخصيات ثلاثية (عبد الله صخي) جعلتها ترضخ لاغترابها فاقدة أية قدرة على المقاومة وتصحيح المسار المنحرف لواقعها، إنها شخصيات مسلوبة الإرادة والحرية والاختيار ففي رواية (خلف السدة) يتراءى لنا (كنيّز) الرجل المهمش اجتماعياً ومكانياً: ((**يسكن كنيّز في كوخ بأحد أطراف البلدة، يخرج صباحاً ولا يعود الا في الليل.... في شبابه توفيت زوجته قبل أن تنجب ولم يتزوج بعدها. اشتهر بتقليد أصوات الكلاب وشجارها فيثير ضحك الكبار والصغار. يضحك دائماً كأنما يعادل بذلك كآبة حياته وبؤسها وفراغها. كنيّز لا يؤمن بالتغيير، بالنسبة له الحياة تمضي هكذا بوتيرة واحدة ومع ذلك كان**

أول من سجل اسمه في الصباح الباكر أملاً بتغيير ما))(صخي،2008 :107-108) (sekhi ,2008: 107-108)، يتجلى الاغتراب الذاتي عند هذه الشخصية الذي تنامى بفعل عوامل خارجية رسخت في وعيها وسلوكها رغبة جامحة في الانفصال عن الواقع والتقوقع حول ذاتها والاستغراق فيها، إن مسببات اغتراب (كنيّز) حفّزت في وعيه فكرة الرفض الشمولي لمبدأ التغيير والثورة الداخلية على حالات الضعف والانكسار والخنوع لما قُدّر له، بل يبدو أحياناً يتصارع مع سلوكيات متناقضة تكاد تتمرد على شخصيته الحقيقية، إنه منعزل عن الآخرين ومع ذلك يتماهى معهم وعلى قدر بؤس حياته وقسوتها فهو يمزح ويضحك، إن هذا التناقض السلوكي في مستوى الصراع والاغتراب الداخلي عرّى الذات وكشف الحيز الواسع بين حقيقتها الداخلية وصورتها الخارجية المزيفة، ومحاولته لرأب الصدع بينهما من ناحية ومواءمة الذات مع الواقع الفعلي من ناحية أخرى، في محاولة للانتصار على مسببات اغترابه. فالذات التي لا تقوى على الفعل الأصعب تلجأ إلى الفعل الأسهل لإبعاد ما يذكرها باغترابها (عبد الرؤوف، 2005: 20) (Abdul Raouf, 2005: 20) .

وتحاول شخصية (غناوي) في الرواية نفسها الركون والانزواء إلى ذاتها والابتعاد عن كل ما يذكّرها بماضيها وما مرّت به من تجارب مؤلمة على مستوى الوعي والسلوك، إنها على يقين ((أن هروبها من ذاتها هو الطريق الوحيد الموصل إلى الذات))(عبد الرؤوف، 2005: 21) (Abdul Raouf, 2005:21)، فتدخل في صراع وجودي بين رغبتها في اثبات ذاتها والهروب منها من خلال الانعزال التام عن الآخرين ومحاولة طمس ملامحها الخارجية، كل ذلك تحقق بفعل السلطة التي مارست معه أساليب البطش والتنكيل لانتزاع الاعترافات منه بالإكراه : ((**أغلق المحل. ترك الأشعار وأخذ يبيع الخيار المملح في خمارات "أبي نؤاس" والباب الشرقي. بدأ يهرب من الآخرين. وتستعر في نفسه رغبة بالبكاء واحساس بالفقدان. وإذ يصادفه معارفه السابقون من الأولاد والشبان، يشيح بوجهه وينشغل عنهم بتعديل وضع بضاعته على كتفه، أو يسحب يشماغه إلى أمام كي لا يتبينوا ملامحه. وحين يقابلونه ويحيونه بحماس يرد عليهم ببرود وكأنه لا يعرفهم، لكنهم في أعماقه يذكرونه بأجمل فترة في حياته، يذكرونه بصخبهم واحتيالاتهم وكذبهم وشرورهم ومفاسدهم. بدا كمن يخفي شيئاً عنهم وعن نفسه....**))(صخي، 2008: 126_127) (sakhi,2008: 127-128) .

من مسببات استغراق الشخصية في ذاتها في هذا المقطع السردي وهروبها من محيطها وواقعها هو تجليات العنف الذي شاب حياتها والأساليب اللاإنسانية التي تعرضت لها من أجهزة القمع السلطوي آنذاك، وعندما لم تقوَ على الصمود أمامه انكفأت إلى ذاتها فلم يعد (غناوي) كما كان عليه في الماضي، لقد هجر عمله وترك المكان الذي وُلد فيه ونشأ لينتقل إلى مكان آخر يخفي فيه معالم انكساره وخيبته، بل إنه يشعر بالرضا التام على ما أصاب جسده من تغيير جعله في مأمن من أن يتعرف عليه الآخرون، فهذا بحد ذاته انتصار لذاته المنكسرة والمتألمة: ((**مرت السنوات، ذبل وجهه واستطال، وتساقط جانب من أسنانه، وهرم جسده كله فلم يعد ثمة أحد يتعرف عليه بسهولة، فاطمأن إلى ذلك التغيير المفجع ولاذ به من قسوة التجربة**))(صخي،2008: 127) (sakhi,2008:127)، تتسع الهوة بين الذات والآخر وتلجأ الشخصية إلى الجسد بوصفه وسيلة دفاعية يحول بينها وبين ما تعانيه من ألم واغتراب، فباتت تستشعر أن التغير الذي طرأ على ملامحها الخارجية هو البداية الحقيقية للخروج من مسببات اغترابها؛ لأن الوعي التام بالاغتراب يؤدي إلى التغلب عليه وبما يعني عرض الأوهام والتحرر من مسبباته (ينظر: محمد حسن، 1995:127) (Mohammed Hassan,1995:127).

تتشكّل دلالات الاغتراب الذاتي في وعي وسلوك (مديحة) في رواية (دروب الفقدان) فتغدو الذات حزينة ومنكسرة، هذه المشاعر دفعت الشخصية إلى أن تتوحد مع ذاتها انطلاقاً من الشعور بالحاجة إلى نفي الآخر والركون إلى مسببات اغترابها، وإن اخفاقها في تجربة زواجها وما عانته من مصاعب في حياتها الجديدة يحدد الإطار النفسي الذي بات يوجه سلوكها ومسارها الفكري والوجداني: ((**.... بذلت مديحة جهدا كبيرا كي تعتاد على حياتها الجديدة فيما ظلت الصور القاسية لتجربتها المرة تلاحقها بضراوة فتدفعها إلى الكآبة والصمت**)) (صخي،2013 :91)(sakhi,2013:91)، إن خروج (مديحة) من تجربتها النفسية القاسية بكل ما حملته من معطيات وإرهاصات كانت مثار قلق واستنفار لمشاعر مخزونة في الذاكرة لم تقوَ على التخلص منها أو نسيانها، فعاشت حالات من الصراع النفسي الداخلي جعلها تعاني من الانقسام على الذات؛ فهي تحاول الانتصار على ماضيها المؤلم وما حمله من صور الاستبداد والهيمنة المتحقق بفعل السلطة/الزوج وأمه، واستحالة التماهي مع حياتها الجديدة الراهنة بعد الانفصال عن ماضيها، ويبدو أن الرضوخ النفسي لأزمتها وسّع من دائرة اغترابها قاطعا بذلك كل صلة تربطها بالعالم، مكتفية بالدوران حول ذاتها القابعة في حيز

مكاني وزماني خاص بها: ((**كانت بعيدة عما يدور حولها، منهمكة في عزلتها التي ازدادت أكثر فأكثر بعد الطلاق فرفضت كل دعوات النسوة في الجوار لزيارتهن في بيوتهن حتى اللاتي تعرفهن منذ طفولتها كي لا تضطر للرد على أسئلتهن حول مشاكلها الزوجية السابقة. وواصلت ابتعادها عن كل ما يتصل بالحياة اليومية، وغرقت في صمتها ووحدتها يعذبها شعور قاسٍ بالذل والإحباط**))(صخي،2013 :148)(sakhi,2013:148) ، تبدو الأنا المغتربة منزوية على نفسها راضية تماما عن واقعها، إنها تعي حجم اغترابها لكنها لا تقدر على الثورة عليه أو على رفضه لذا فضّلت الهروب والانسحاب إلى الداخل، فهي ((تدين عجزها وقصورها، تنظر للخراب والعبث، أو تحاول الانسياق والنسيان وقتل ما ينبض في داخلها))(خليل،1992:75)(Khalil,1992:75).

لم يكن الارتباط بين الشخصية والنسق الجمعي المحيط بها ارتباطاً توافقياً فهو لم يصل إلى درجة المواجهة فعلياً، بقدر ما هو صراع خفي بين الذات والآخر، بين الداخل والخارج، فالذات بما تحمل من عبء اغترابها تعاني من رفض الآخر وصعوبة التماهي معه ، ومن ثمّ اخفاقها في رسم معالم طريق خلاصها من مأساتها. إن عجز (مديحة) عن التكيف مع حياتها الجديدة دفعها إلى الانسحاب من واقعها مع ما يستتبع هذا الانسحاب من تداعيات كانت محصلتها تهتكاً يفتك بالشخصية ووعيها وسلوكها الوجداني والانفعالي (ينظر: حدّاد،1995: 232)(Haddad,1995:232).

ويستمر الفعل الاغترابي مهيمناً على سلوك (فاطمة) و زوجها (خلف) في رواية (خلف السدة) بما أثاره من تبعات نفسية ووجدانية توالدت بفعل احساسهما بالفقد والضياع أو عدم التلاؤم بين الداخلي/ الذاتي والخارجي/ الواقع بتفصيلاته كافة ، حتى ليغدو الموقف السلبي تجاه الذات هو المهيمن على السلوك بما يحمله من دلالات نفسية ، وانفعالية تجسّد الحالة الخاصة المصاحبة لتلك الشخصية، يقول الراوي متتبعاً ارهاصات المعاناة التي بدأت بالتبلور على حيز السرد والأحداث: ((**....تزوج من أحد معارفه البعيدات غير أنه لم ينجب منها. يومها قال يائسا انه لا يصلح لزراعة أية بذرة**))(صخي،2008: 64)(sakhi,2008:64) ، هنا يبرز الحس الاغترابي وتتضح معالمه فيبدو المسبب الأساس له شاخصاً لأول وهلة، إنه شعور (خلف) بالضياع وانعدام إمكانية اشغاله حيزاً مؤثراً في هذا العالم، فعدم قدرته على الانجاب كشف عن حركية الشخصية المستغرقة في ذاتها الرافضة مبدئياً الخروج من هالة الانعزال والوحدة ، هذا الفعل الاغترابي امتد إلى زوجته (فاطمة)

فأضحت تحت وطأة اغترابها تشاطره أحزانه وضياعه، لتغدو شخصية (خلف) رمزاً في الرواية ((تنقل حالة الاستغراق في الذات إلى غيرها من الشخصيات، انها رحلة المعاناة والغوص في أعماق الذات التي لا ترتضي إلا بمشاطرة الآلام مع الآخر))(الطيب قزيمة،2015: 31) (Tayeb gasema,2015:31)، وهكذا يتحول الاغتراب إلى طاقة سلبية تمارس فعلها التأثيري على سلوك (خلف وزوجته) فيختاران عزلة مادية ومعنوية تقودهما إلى التماهي التام مع طقوس استغراقهما في ذاتيهما((**كان يجلسان وحدهما صامتين من دون أن يطرق بابهما أحد لأسابيع. يصغيان إلى وقع خطى المارة القليلين أو نداءات بائع جوالٍ أو استغاثات متسول**))(صخي،2008: 64)(sakhi,2008:64).

تُشكّل مسببات استغراق الشخصية في ذاتها احباطاً يقودها إلى نفي فكرة الاندماج في واقع بائس فلا تجد مناصاً إلا بالانعزال عن الآخر/المجتمع، والقبول القسري بما فرضه ذلك الواقع غير أن (فاطمة) ترفض اغترابها وتحاول جاهدة نفث الروح في الجزء النابض من ذاتها المتألمة بما يحقق لها الحيز المناسب للخلاص والانتصار على مسببات اغترابها فلجأت إلى مغادرة المكان الذي كان عاملاً حاسماً في بلورة معاناتها وشعورها بالضياع والعزلة، لتنتقل إلى حيز مكاني آخر إذ تغادر قريتها بصحبة زوجها لينتقلا إلى بلدة (خَلْفَ السدة) إلى بيت أخيه (سلمان اليونس)، يقول الراوي: ((....**وبسبب تألقها المتدفق والاستثنائي تمكنت من التعرف على أغلب الباعة من النساء والرجال والصبايا، وغدت طلباتها من الجميع مستجابة. في البيت ترسم على وجهها ابتسامة دائمة، وإذا ضحكت تطلق كركرات طفولية متصلة. قال زوجها انه " لم يسمع ضحكتها تلك منذ سنوات**"))(صخي،2008: 84)(sakhi,2008:84)، إن مغادرة (فاطمة) للمكان هو تحول جذري في سلوكها إنه إيذان بانتصار حاسم على اغترابها. فالمكان هو مسبب آخر لذلك الاغتراب _ وإن لم يكن الوحيد إلا أن فعله لا يقل تأثيراً عن بقية أسبابه_ بما أنتجه من فعل تراكمي سلبي أسهم في رسم سلوكها وتأطير البعدين النفسي والوجداني لذاتها، ليصبح المكان عنصراً من عناصر تهميش الشخصية وتبديدها (ينظر:البارودي،2002: 237) (Baroudi,1997:237) وشكلاً من أشكال اغترابها جعلها خارج حيز الفعل والمشاركة في الحياة، وأن مغادرتها له هو انحراف إيجابي عن محور معاناتها، ووفق هذا المفهوم تتجلى القيمة الدلالية والنفسية للمكان وتأثيره التبادلي مع وعي وسلوك الشخصية، إن تحولها من مكانها الأول غدا فعلاً معاكساً اتفق مبدئياً مع طموح تلك المرأة الهاربة من واقعها لذلك جاء ذلك الحيز المكاني الجديد

كحلٍ آني يفرض وجوده وتأثيره على مجرى السرد والأحداث، فيؤدي دوره الدلالي في تلاحم الشخصية مع المكان وذوبانها فيه (ينظر: عبيدي، 2011: 201) (Obaidi,2011:201)، وتحقيق حالة من التوازن بينهما تبعدها قدر الإمكان عن المسبب الحقيقي لاغترابها ولتعيد لذاتها بعضاً من روحها وحيويتها المفقودة.

لم يكن (علي) الشخصية الرئيسة في الثلاثية بمنأى عن الاغتراب وتداعياته وما تركه من نتائج حاسمة في وعيه وسلوكه وما أنتجه من تحول في مستوى السرد والأحداث، فهذه الشخصية عاشت في واقع بائس وفي زمن شهد تحولات سياسية واجتماعية ألقت بظلالها على تكوينه النفسي والفكري فكان لتداعيات هذه المرحلة الأثر الواضح في بلورة رؤية ذاتية مشوهة فرضت نفسها على تلك الشخصية، جعلتها تدور في فلك نفسها مرغمة باثّة حزنها وعجزها من خلال حديثها مع نفسها عندما نصحه المطرب المشهور أن يترك الغناء ويكمل دراسته، استعرت في نفسه مكامن الحزن واليأس فهو يحب الغناء ويرغب أن يصبح مغنّياً يقول: ((**ألا يحق لأبناء الفقراء أن يحلموا، أن يطمحوا؟ لماذا عليهم أن يكدوا ويكافحوا طيلة حياتهم؟ ألا يحق لهم أن ينمّوا هواياتهم، وأن يرسموا، أن يغنوا، أن يرقصوا؟ لماذا يضعون أمامنا المعوقات دائماً؟**))(صخي،2013 :165)(Sakhi,2013:165)، فشعور (علي) بالعجز والحرمان وسّع من دائرة اغترابه وجعله في موقف لا يقوَّ فيه على المواجهة لذلك كان المونولوج الداخلي وسيلته الوحيدة في درأ انهزامه ورفضه للواقع الذي يعيشه فكان لهذه التقنية السردية دور في ((اظهار الكامن من الشعور والأخيلة في تلقائية تبدو أنها خارج إرادتنا تماماً فيتحول المونولوج شكلاً يسمح للمرء، بأن يطارد إلى أعماق النفس ويفجر الفكرة)) (ويست،1981: 25)(west,1981:25)، إنها فكرة الشخصية الرئيسة المغتربة التي بدت واضحة بلا أي وسيط لتجسّد حدود الأزمنة النفسية والصراع الداخلي لها؛ لأن ((تحت غطاء العقل الواعي مستنقع تنمو فيه الدوافع اللاعقلية وجذورها في الجنس والغريزة وسلطة الوالدين والتوقف والتسلط والإحباط))(الطالب،1971: 152)(Al.talib,1971:152) .

هكذا يجسّد الحرمان والقمع الفكري حقيقة الذات المغتربة الباحثة عن وجودها الإنساني وحريتها المستلبة، إن رغبة (علي) في أن يصبح مغنّياً لا تلبث أن تصطدم بصخرة الواقع ليتشظى حلمه بين الرغبة والرفض فيسقط في اغترابه لتبدأ في داخله رحلة البحث عن ذاته الضائعة في تيه ثقافي واجتماعي ووجودي وعاطفي، ليلجأ هذه المرة إلى المرأة كمعادل نفسي ووجداني لحالة القهر والضياع التي صاحبته منذ الطفولة، إن المرأة

في نظره هي رحلة البحث عن ذاته وان تجربته معها هي تحول نوعي في سلوكه وانعطاف نفسي يصب في وعيه ويخرجه للمرة الأولى من البراءة إلى عالم التجربة(ينظر: عاشور،1977 :63) (Ashour,1977) 63:، فتسلله إلى عالم المرأة منذ أن كان مراهقاً جعله يتبنى مفهوماً جديداً لحالة القهر والحرمان الذي نشأ عليها مكنته من نسيان اغترابه والشعور لأول مرة بالظفر والنصر على واقعه البائس، وهذا ما يتجلى في الموقف الذي جمعه بـــــــ(بدرية) في إحدى الزيارات الدينية، إذ يقول الراوي: ((.... **أراد أن يحتضنها الخلف، فتراجع، ثم غيّر وقفته ليصبح أكثر قربا إلى الحد الذي لامست ركبته أسفل مؤخرتها. غاب علي في ذلك الهيام الصحراوي ولم يعد يرى أيا من الوجوه المحتشدة حوله وأمامه، لم يعد يرى الطبول والصناجات والبيارق والأكف الصاعدة والهابطة على الصدور بحركة دقيقة منتظمة....**)) (صخي،2008: 96)(sakhi,2008:96)، إن علاقته الطفولية بـــــــــــ(بدرية) فتحت له آفاقاً جديدة دفعته خارج حدود عزلته التي رسمها له الواقع ونجحت إلى حد ما في تخطي اغترابه، والانتصار على مسبباته.

ومع اختفاء (بدرية) المفاجئ عن مسرح الأحداث تبدأ رحلة (علي) في البحث عن الحب مرة أخرى في محاولة لرأب الصدع الذي بدأت ملامحه بالتشكل في وعيه وسلوكه ليلتقي بـــــــــــ (رجاء) الفتاة المثيرة للجدل بين سكان بلدته بجرأتها ومظهرها الخارجي، فكان وجودها الحل البديل لإنهاء أزمته والعودة به إلى ذاته التي أوشكت على الضياع برحيل حبه الأول، وهكذا يبدو فقدان حرية الاختيار من مسببات اغترابه الذي رافقه منذ طفولته حتى مماته؛ لأن الانسان لا بدّ أن تكون ((له القدرة على اتخاذ القرار والذي هو في جوهره عملية اختيار لبديل من البدائل المطروحة أمامه))(بن سالم،1986: 80)(Ben salem ,1986: 80) ؛ لأن عجزه عن التكيف مع حياته الجديدة الخالية من الحب أسقطه في هوة من الفراغ الروحي والوجداني فكان لابد من ملأ هذا الفراغ وتحقيق التكامل العاطفي والنفسي: ((**تكررت لقاءاته برجاء مرات عدة، وفي كل مرة كانت أشواقه ورغباته تزداد اتقادا. كان حين يلامسها يشعر كأن دماء ساخنة تتدفق من عينيه. ويوماً فيوماً أصبح لا يفكر الا بها حت حلت صورتها محل صورة بدراو والتي تراجعت مختبئة في ظلال شاحبة**))(صخي،2013: 55) (sakhi,2013: 55) إن رحلة البحث عن الحب هي نقطة تحول في المسار النفسي والعاطفي له إنها ترمز إلى عثوره على ذاته المفقودة بفعل قوى خارجية أحالته إلى كتلة خالية من المشاعر لا قدرة لها على تحقيق أهدافه، تلك القوى التي لم تقتصر على التأثير الجمعي /السلطة السياسية

والمجتمع، بل امتد إلى الفعل الفردي الذي تمثل بالأم (مكية الحسن) التي عارضت علاقته مع (رجاء)، وفي خضم هذا الواقع الجديد يعود الفعل الاغترابي مهيمناً على تكوينه النفسي ومجسّدا رغبته في رفض هيمنة السلطة التي طوقته بالأخطار: خطر البوح، وخطر البحث عن وجوده الحقيقي: ((.... **أين كانت تخبئ مكية الحسن ذلك الجور؟ في قلبها الرقيق السمح المعطاء؟ في عينيها اللتين تقطران رقة وأمومة؟ لقد أمضه غياب بدراو شهورا حتى انبثقت رجاء مثل فنار، والآن تريد أن يتخلى عن ذلك الشعاع الناعم والرؤوم. وتساءل: لماذا فعلت كل ذلك؟.... تلك كانت أول خيبة أمل تسبّبها له وقد خلقت لديه شعوراً سلبياً إزاءها، حتى أنه في تلك اللحظة المتوترة كره الآمال التي تعقدها عليه.**))(صخي،2013: 63-64) (sakhi,2013: 63-64) ، يبدو أن (علي) يعيش حالة من الصراع النفسي الداخلي ويعاني صورة من صور الانقسام على الذات، انه بين موقفين متضادين: تشبثه بحبه لـــــــــ (رجاء) ورغبة الأم الرافضة لذلك الحب، إن احتدام المواجهة بين الرغبة والرفض هو محور معاناة الشخصية ومظهر لاغترابها ومحصّلة هذا الرفض من جهة الآخر /الأم تنامي شعوره بالاضطهاد فيغدو الخطاب الاستبدادي في وعيه مهيمناً على سلوكه وردة فعله المتأرجحة بين الخضوع والثورة على تلك السلطة، ويبدو هذا الخطاب متمركزاً في إطار الملفوظ الرابض في شقوق النص المعبر عن مقصدية الشخصية ورغبتها الكامنة في الخروج من هالة القمع واثبات وجودها الواقعي؛ لأن الخطاب الاستبدادي هو الذي ((يصوغ وعي المخاطب، ويوجه إرادته بهذا الاتجاه أو ذاك، وهو الذي يحدد علاقاته بالأشياء والأوضاع، وطبيعة مواقفه منها، فيجعله يقبل منها ما يقبل ويرفض ما يرفض))(الحميري،2008: 193) (Hamyari,2008: 193) ، لتصبح الشخصية على وفق هذا المفهوم نتاج خطابات وأنساق معرفية توجهه تتعارض مع احساسه الداخلي ومن هنا يتعاظم الشعور بالضياع حتى تبدو الشخصية عاجزة عن السير في خط نفسي منتظم يحدد سلوكها وتوجهها العاطفي. إن رغبتها في تحقيق ارتباط وجداني مع الآخر/ المرأة، يحدد المسار النفسي الذي أرادت أن تسير فيه بما يسهم في رسم معالم كينونتها ووجودها والخروج من دائرة العزلة والاغتراب، فالحب بما يصوغه من مشاعر وما ينفثه من روح يُعد منهجاً تعويضياً يعتمده المغترب للخروج من تلك العزلة ولكن اخفاق الشخصية في جميع تجاربها النسائية قادها إلى اغتراب عاطفي أكثر عمقاً يضاف إلى اغترابها النفسي والاجتماعي.

لقد عاش (علي) تجارب عاطفية كثيرة وتنقّل من امرأة إلى أخرى، فما أن ترحل عنه واحدة حتى تبدأ في داخله رحلة البحث عن الأخرى لكنه مع ذلك لم يحقق أي تواصل عاطفي معهن جميعاً، بدءاُ من (بدرية) أو (بدراو) _كما يسميها_ وانتهاءً بـــــــ (خولة) التي تزوجها ثم انفصل عنها، يبدو أن حدة الاغتراب العاطفي كانت مهيمنة على سلوكه النفسي والانفعالي ، فلم يجد عند أي منهن ما يحقق له رغبته في نيل الاستقرار الذي كان يصبو إليه وكان هذا التعدّد في تجاربه مع الجنس الآخر مؤشراً على تمكن حالة الاغتراب العاطفي منه، ولعلها كانت أحد الأسباب _ فضلاً عن الاضطهاد والقمع السلطوي_ التي دفعت به إلى النهاية المأساوية المتمثلة في هجر وطنه والبحث عن البديل المنشود للوطن والحبيبة.

2_تجليات الاغتراب عن الآخر:

أ_ تجليات الاغتراب القيمي/ الاجتماعي:

يتراءى في ثلاثية (عبد الله صخي) شكلاً آخر من الاغتراب يستند أساساً على العلاقة غير المتكافئة بين الفرد والآخر، ذلك الآخر الذي يمثله النظام الجمعي بما يجسّده من قيم ، وأعراف وتقاليد لا تتناسب وفكر الفرد وتكوينه النفسي والعاطفي والوجودي، ليجد نفسه منفصلاً عن ذلك المجتمع ناقماً على تقاليده وقوانينه، يرى (ميدلتون) : ((أن الشخص المغترب يمتلك دوافع في اتجاه تحطيم الأعراف والتحلل منها))(شاخت،1980: 248) (shakht,2008: 248) ؛ لأن هذا محصلة اخفاقه التام في التكيف مع ذلك المجتمع وقيمه وقوانينه وأنظمته السائدة، وتأتي ردة الفعل هذه تعويضاً عن عجزه في اتخاذ موقف ثوري من سلطته واستبداده ((ذلك أن من أهم الأسباب الفاعلة في اغتراب البطل عن مجتمعه وتقاليده، وعن انسان هذا المجتمع، نظرته إلى الحياة والوجود، وإلى الانسان الذي يفد إلى هذا العام دون أن تكون له حرية الاختيار في الوجود، ودون أن تكون له حرية الاعتراض أو القدرة على التغيير))(عليان، 2001: 103) (Olyan,2001: 103).

هكذا تبدو الشخصية المغتربة خاضعة لنواميس محيطها الجمعي وقيمه الاستبدادية، إنها راضخة قطعاً لذلك المحيط ولا تقوَ على الخروج على أفكاره وقوانينه لكن بعضها _ على الأقل_ تخطى ذلك النمط السائد للخضوع فكسرَ القاعدة وثار على المألوف، فعلى سبيل المثال تمكّن (سوادي حميد) في رواية (خلف السدة)

من الزواج بفتاة بيضاء البشرة من أسرة ثرية على الرغم من سواد لونه ويتمه وفقره ووضعه الاجتماعي المتدني: ((**كان يتيما أسود البشرة تربى في منازل شيوخ الجنوب. وذات يوم قرر القدوم إلى البلدة. ترك وراءه فتاة بيضاء أحبها منذ طفولته. أقام في كوخ يطل على فسحة في زاويتها اليمنى برج حمام. وكان في كل مرة يتحدث عن فتاته خاصة بعد مشاركته في الزيارات الجماعية إلى الأضرحة المقدسة.... ساعتها اقترح عليها الزواج سرا....**)) (صخي، 2008: 20) (sakhi,2008: 20)، تتضح مسببات الاغتراب في حياة (سوادي حميد) من خلال شعورها بالعدم والفقر وضياعها في عالم لا تمت إليه بصلة، فضلاً عن غياب العنصر الأهم في تكوينه الاجتماعي والنفسي وهو نشؤه في حيز مكاني بعيد عن الأسرة الذي ترك فقدانها هوة عميقة في وعيه وسلوكه مما ولّد في داخله احساساً عارماً بالدونية وشعوراً حاداً بالنقص مقارنة مع غيره من أفراد بلدته، إن هذا التدني في العلاقات الاجتماعية أدخله متاهة الاغتراب والعزلة عندما حلت القيم المادية محل القيم الروحية والأخلاقية، وفي ظل هذه التراكمات المشوهة حاول (سوادي حميد) كسر قاعدة هذه المُثل عندما نجح في اقناع (حسنة) الفتاة التي لا تشبهه لوناً و مكانة اجتماعية في الزواج منه وترك قريتهم والهروب معه إلى بلدة (خلف السدة) .

من خلال الاستقراء الدقيق لتوالي الأحداث التي طرأت على واقعة حبهما والموقف الجمعي المعارض له والمتمثل برفض أخوتها لهذا الارتباط وهروبهم إلى مكان بعيد عنه يتجلى الموقف السلبي وردّة الفعل التسلطية لهؤلاء الأخوة بوصفهم جزءاً من المنظومة الاجتماعية التي تحارب هذا النوع من العلاقات الإنسانية غير المتكافئة، هذا الواقع الاستبدادي المتأسس على التباين الطبقي والاجتماعي ، والمادي يدفع بالشخصية إلى الارتداد إلى ذاتها، عاجزة عن إحداث أي تغيير لقيم مجتمعها ، فتكتفي بالتقهقر والتراجع إلى خارج حدود المواجهة وهي بتبنيها لذلك الإحباط توجّه تجربتها باتجاه فوضوي يتناغم دلالياً وموضوعياً مع احساسها بمأساتها وبوعي خفي يدفعها إلى العزلة والتوحد مع ذاتها الرافضة لقيم ، ونواميس ذلك النسق الجمعي مع عدم امتلاكها لأدوات الثورة والتغيير لتلك القيم، لذلك آثر كل من (حسنة وسوادي) الرضوخ لاغترابهما والاكتفاء بوسيلة قد بدت لهما لأول وهلة ناجعة وخاضعة أيضاً لتراكمات ماضية راسخة في وعيهما ناقلة إياهما إلى مرحلة الموت العاطفي: ((**هبط الظلام فلم يعد بمقدور بحر رؤية وجه والده، لكنه رآه بوضوح حين أخبره بأن أمه رفضت الزواج من الذين تقدموا لها فيما بعد، وكانت تقول دائما إنها حرّمت جسدها**

على أي رجل غيره))(صخي،2013: 109) (Sakhi,2013: 109) إن الموقف الرؤيوي لـــــــــ (سوادي) متفق مع سلوك (حسنة) فمال إلى العزلة والانقطاع والرفض لفكرة الاقتران بأي امرأة أخرى : ((**سأله ابنه عن سبب عدم زواجه مرة ثانية رغم مرور سنوات طويلة فأجابه إجابة قاطعة : " لم أتمكن من نسيان أمك"**))(صخي، 2013: 125) (Sakhi,2013: 125).

يبدو أن رحلة البحث عن الحب في هذا المنجز الروائي هي المهيمنة على بعض سلوكيات وأفكار شخصياته، وغالباً ما تنتهي تلك التجارب بالإخفاق لتقاطعها وتنافرها مع نواميس المجتمع وقوانينه، فتصبح تلك الشخصيات متأرجحة بين الرضا والانقياد التام لما يفرضه الآخر/المجتمع، والرغبة في الخروج عليه ورفضه، فكان للمرأة رغبتها العارمة في البحث عن الحب وشعورها بوجودها وكينونتها في ظل مجتمع ذكوري يفرض سطوته وتسلطه عليها، فيدور الصراع بين الذات الباحثة عن رغبتها وتحقيقها وبين القمع الخارجي لهذه الرغبات، فتخضع تلك الذات لسطوة العُرف والقيم السائدة، ففي رواية (خلف السدة) يخرج أخوة (كلثوم) مرفوعي الرأس من السجن بعد قتلهم أختهم لجريرة ارتكبتها عندما أحبت، فتختلج مشاعر الحزن دواخل (بدرية) الفتاة التي تطمح أن تجد هي الأخرى ما قُتِلَت من أجله (كلثوم): ((**حين رأتهم بدرية اعتصر قلبها، وأحست بألم في أحشائها. رأت صورة كلثوم المتخيلة تكبر تدريجيا لتحتل الفراغ أمامها، ثم تتقلص لتصبح كفا واحدة ضخمة يقطر منها الدم.**

في الليل، وهي في رقدتها تحت النجوم في باحة الحوش، حلمت بالفتاة القتيلة وتمنت لو كانت على قيد الحياة لتعرفت عليها ولتمتعت بصحبتها، لروت لها كلثوم حكايات عن من تحبه، ولشرحت لها مشاعر العاشقة التي لم تعرفها بعد)) (صخي،2008: 57) (Sakhi,2008: 57)، إن الحرمان العاطفي الذي يلف حياة (بدرية) من أهم مسببات اغترابها هذا الحرمان المتوالد بفعل تنامي رؤى ومبادئ ترسخت في واقع يخضع لمرجعيات ثقافية واجتماعية ومعرفية تتنافر دلالياً مع وعي وسلوك الشخصية. يتحدد وجوده الحسي والمعرفي مـــــن وجوده الواعـــــــــــــي والموضوعي فـــــــــــــي مستوى الفعل والسلوك (المحمداوي، 2013: 29) (Al.mohamadawi,2013: 29)، الذي يجعل من الشخصية المغتربة خاضعة للتأويل ؛ ليوفر لها وجوداً رمزياً مهيمناً على مساحة الوعي الخاضع لسطوة الاغتراب ومسبباته.

تتلاشى الرغبة الفردية للمرأة الباحثة عن وجودها وحريتها واستقلالها الذاتي أمام سلطة ذكورية تستمد شرعيتها المطلقة من منظومة جمعية تفرض هيمنتها الكاملة عليها ، فتبدو تلك المرأة تابعة لقيم التسلط المشرعن التي يمثلها الرجل /الاب او الأخ، لتخضع خضوعاً شاملاً لمفهوم (التشيؤ) الذي ينظر الى الانثى بوصفها رغبة والتي تقوم بدورها بتحويل المرغوب فيه الى شيء(ينظر: عبد الرؤوف، 2005: 59) (Abdullah,2005: 59)، ووفق هذا النسق المعرفي للتبعية تفقد المرأة كل حيز للاختيار لتتحول من كائن أنساني الى سلعة مادية محكومة بتسلط الرجل وتبعيته، فـــــــــــــــ(إقبال) الفتاة المضطَهدة في رواية (دروب الفقدان) لا تقوَ على الانحراف عن الخط التسلطي الذي رسمه لها إخوتها، يقول الراوي ناقلاً معاناتها على لسان (حامد) زميلها في العمل الذي أحبها:((**قال إنها ليست جميلة لكنها امرأة رائعة، خجولة وطيبة القلب ، تعاني من إخوتها المتشددين الذين يعاملونها بقسوة إذا تأخرت عن موعد عودتها من الدائرة أو الجامعة ، كما انها حذرة في تعاملها مع الاخرين ، لا تذهب الى النادي ولا تمشي مع الطلاب ولا تشارك في حفلة أو رحلة**))(صخي،2013: 203) (Sakhi,2013: 203) برهن النص على معاناة (إقبال) وجسد حقيقة الوحدة التي تحياها في مجتمع قمعي عندما توحدت مع الوجود المفروض عليها لتجد فيه تحققاً وتلبية لرغبة الاخر، هذا التوحد ليس وهماً؛ بل هو واقع (ماركوز، 1988: 47) (Marcus,1988: 47) جسدته مجموعة من القيم والرؤى والأفكار والأنساق الثقافية التي وسمت المجتمع وبرّرت تضييقه وتعسفه على حرية الشخصية والتحكم بطموحها ورغبتها في التواصل مع الآخر.

جعل رضوخ المرأة لمسببات اغترابها في موقف انهزامي تنعدم فيه المواجهة؛ لأنها على يقين ان النتيجة محسومة لصالح الاخر المضطَهِد والصراع بينهما غير متكافئ فلا تقارب بين عالميهما، العالم الداخلي الخاضع والمستسلِم مقابل العالم الخارجي القاهر والمهمِّش لدور المرأة التي تعاني الصراع بين الذات والواقع، الموروث الذي يعطي الرجل حقه في التسلط والهيمنة، ويرى المرأة تابعة له خاضعة لسيطرته لتصل إلى هذه المرحلة من الادراك تحت وطأة صراعات عميقة الجذور، يلتبس فيها التشوق للحرية والانعتاق باليقين العميق من استحالة تحقيقه، فـــــــ (بلقيس) فتاة مضطَهدة يمنعها المجتمع الذكوري من ممارسة حقها في أن تحب من تشاء فيخيّم عليها صمت داخلي أحالها إلى أنثى لا تمتلك أدوات الثورة على مسببات اغترابها واستلابها، بعد أن وقعت تحت سلطة ما يُسمى بـــــــــ (النهوة)، فابن عمها : ((**راح يطلق تهديداته لكل من يفكر**

بالاقتراب منها، وأحيانا يبعث برسائل شفوية إلى رجال من مناطق بعيدة لا يعرفون شيئاً عن بلقيس لمجرد سماعه أنهم ينوون الزواج عند ذاك اتخذ والدها خطوتين غيرتا مجرى حياتها، الأولى منعها من الذهاب إلى المدرسة نهائياً والثانية إرسالها للتدريب لدى خيّاطة محترفة في الجوار....))(صخي، 2013: 221) (Sakhi,2013: 221) ، فالأنثى هنا تحيا في حالة من الحرمان العاطفي فرضته الطبيعة القبلية البدائية ليصبح التمرد مستحيلاً ، فهي محاطة بسلطتين ذكورتين تهمشان وجودها وكينونتها الإنسانية، إلا أن الوضع الاجتماعي المتدني الذي سلبها حريتها وارادتها لصالح الآخر/ الرجل، جعلها تتخذ البوح المستتر والرفض غير الصريح وسيلتها الوحيدة في الخروج على تلك المنظومة الاجتماعية غير الأخلاقية، تقول لبعض النسوة: **((لقد حرمني ابن عمي من الرجل الذي أصبحت أشمّ رائحته في النساء المتزوجات من حولي))**(صخي، 2013: 221) (Sakhi,2013: 221) ، لقد شكّلت دونية المرأة في وعي الآخر إشكالية تخضع في كثير من جوانبها لنظرة المجتمع الذي عزز هذه الإشكالية ورسخ لبعض مفاهيمها وثقافتها القائمة على الرفض والتهميش والاقصاء، ومحصّلة ذلك تنامي الشعور بالاستبداد في وعي الشخصية بوصفه نسقاً خاضعاً لآليات الخطاب والسلطة وخضوع الانسان لمسببات أزمته واغترابه وانحداره الفكري والإنساني، يجعله منقاداً لخطابات وأنساق ثقافية توجهه وتشحنه بطاقة معرفية مشوّهة لا تسمح له برؤية شاملة وموضوعية ودقيقة للعيوب الثقافية والمعرفية المحيطة به (الغذامي، 2005: 8) (Al.Gothami,2005: 8) ليغدو غير قادر على الخروج من الحيز الاستبدادي الذي تموضع فيه؛ لذلك نجد أغلب شخصيات الثلاثية مستسلمة لواقعها منقادة خلف سوسيولوجيات هي بالأساس وليدة تراكمات أخلاقية وتراثية لا مجال لنفيها أو رفضها.

ب_تجليات الاغتراب عن الوطن:

يشكّل الوطن إشكالية كبرى في وعي وسلوك الشخصية الرئيسة في الثلاثية بما ضمه من نظم سياسية وايديولوجية وفكرية مستبدة اسهمت بفعلها التعسفي واللاأخلاقي في رفد الشخصية بمزيد من الإحباط والتشويه والاستلاب في الفعل والممارسة، هذه الانحرافات السلوكية أضفت بها إلى ما يشبه الانفصال أو القطيعة عن ذلك الوطن والشعور باللاجدوى والهامشية، فيتنامى الحس الاغترابي: ((فعندما تتعرض الشخصية الإنسانية في جوهرها العقلي، أو الثقافي، أو الاجتماعي، لنوع من التشويه والاغتصاب، تحدث عملية الاغتراب)) (وطفة، 1998: 247) (Watfa,1998: 247).

فقدان التواصل بين (علي) ووطنه واتساع الهوة بينهما وإحساسه بأن هذا الوطن غدا مرجعية للذل والاستعباد وأن البقاء فيه يفسد انسانيته وروحه اختار الرحيل عنه كحل بديل لحالة القهر والاضطهاد التي تعرض لها: ((.... **وفكّر أنه إذا فقد ثمانية شهور من حياته هذه المرة فربما سيفقد حياته كلها في المرة القادمة. من يدري أي تهمة جديدة ستوجه إليه؟ وقد يقضي فترات طويلة من دون أي اتهام أو تحقيق أو محاكمة! كم من المحتجزين والمعتقلين الذين لم يسأل عنهم أحد لسنوات؟ ما رآه داخل المعتقل أكد له رخص الانسان ووحشيته. وخطرت له فكرة الهجرة كطريق للخلاص بدلاً من البقاء والسير على حافة الجحيم**)) (صخي،2017: 19) (Sakhi,2017: 19)، هكذا يعلن (علي) عن إشكالية العلاقة التي تربطه بوطنه بوصفه بؤرة مكانية محاطة بمجموعة من القيم والايديولوجيات المستبدة وفي خضم هذه المعطيات التي لا تتفق مع سلوكياته وفلسفته في التعاطي مع الواقع، دُفِعَ قسراً الى الاغتراب عن وطنه ومحيطه، والشعور الطاغي بالضياع والاستسلام القهري للسلطة الحاكمة. هذا الاستسلام لإرادة الآخر/السلطة، نتيجة منطقية لشخصيته الموسومة بالاستلاب والمنقادة لهواجسها التي هي في حقيقتها تراكمات اجتماعية وسياسية وثقافية رافقته حتى نهاية حياته، لذلك صاحبه الخوف من المجهول حتى وهو خارج حدود وطنه: ((**بدأت هجرته. ومع أنه كان مسروراً بوجوده على الأرض السورية، بعيداً عن أعين المخبرين ورجال الأمن المنتشرين في الجامعات والمدارس والمعامل والمقاهي إلا أن روحه شهقت بمرارة عندما أدرك أن بلاده توارت خلف الحدود، وراوده شعور يبعث على القلق بأنه سيواجه حياة صعبة وعرة. ومع التفكير الطويل بما سيلاقيه خيّل إليه أن تلك الخطوات الأولى علـــــى طريـــق المنفى ربما تقوده إلى حتفه**)) (صخي،2017: 35) (Sakhi,2017: 35).

لم يكن الوطن في مفهوم (علي) إلا سلسلة من الأزمات توالدت بفعل الهيمنة السياسية التي استهلكت الانسان وجعلته تابعاً قسرياً لأنظمتها وثقافتها المتأسّسة على القمع والاضطهاد، وفي ظل هذا التأزم الأخلاقي بين الشخصية والمكان تتحقق حالة من التنافر بين الإثنين جعلته يعيش أزمة المكان ليستحيل التواصل مع الفضاء الجغرافي بوصفه منظوراً تتمثل بعض تجلياته في الشعور الطاغي بالاغتراب، فمع الانفصال عن الوطن يصبح الانفصال عن الذات قيمة معرفية وثقافية تعزّز من الإحساس بالإحباط والضياع وتنمّي الشعور بالقلق والتوتر الذي صاحبه وهو خارج الحدود، ومن ثمّ استشرافه لما سيحدث له من أزمات وصعاب.

جعل خضوعه لمسببات عجزه واستلابه مستسلماً لقدر مأساوي يفسر عجزه وضعفه ؛ ليكتفي بإدانة الواقع عبر الأسئلة المستفهمة التي تدور في مخيلته عن المصير المأزوم بالحيرة والقلق، يقول الراوي ناقلاً خلجات نفسه المتأزمة: ((**هل كان عليه أن يغادر العراق أصلاً؟ ويترك أخته مديحة الوحيدة التي كانت تتمنى أن يظل إلى جانبها، وأستاذ الموسيقى علاء شاكر الذي علّمه هيمنة الروح على الأوتار؟ ولكن هل كان باستطاعة علي سلمان العيش في بلد تذروه الرياح كالعراق؟**)) (صخي، 2017: 101-102) (Sakhi,2017: 101-102).

لم تكن هذه الأسئلة إلا معطيات حقيقية وتعبير منطقي عزّزت من فكرة الانفصال عن الوطن بشكل أو بآخر، هذه الفكرة تتحول إلى أزمة نفسية يمثلها الشعور بالغبن والانسحاق عندما يقارن نفسه بأولئك الذين يعيشون في وطنهم بحرية وإنسانية: ((**أما هو فلاجئ قادم من بلاد تكره أبناءها وتذيقهم الذل والهوان في كل ساعة، أو تلقي بهم في أتون حرب لا طائل من ورائها**))(صخي، 2017: 137) (Sakhi,2017: 137) ، هكذا يتخلى الوطن عن أبنائه فتتعقد العلاقة بينهما وينعدم الترابط لتبدو الكراهية هي ما تنعم به عليهم، ويبدو أن النص المختزل هنا محمّل بمفردات لغوية سلبية : (الكره، الذل، الهوان) يشير إلى نسق أيديولوجي مُعلَن يهيمن على الخطاب العلائقي بين الاثنين (الشخصية والوطن) لتغدو ردّة فعل الشخصية الرئيسة (علي) أخف وطأة وأكثر حميمية وشوقاً، فعندما يداهمه الموت وهو في أرض الغربة ينتابه حنين طاغٍ لوطنه الذي رفضه وحكم عليه بالنفي: ((**استبد به شوق جارف إلى بغداد، إلى نهرها ومقاهيها وشوارعها وحدائقها، وفكّر أنه سيشفى هناك، سيشفى من جميع أمراض المنفى التي بدأ يعاني منها منذ ذلك اليوم الذي وقف فيه عند معبر الرطبة الحدودي منتظراً السماح له للشروع بالهجرة الجديدة، متتبعاً أثر أجداده المستكشفين الأوائل الذين قدموا إلى بغداد وسكنوا خلف السدة قبل عقود. هناك سيشفى عندما يرمي نفسه فوق تلك الأرض التي تجتازها الرياح القادمة من الجنة**))(صخي، 2017: 189-190) (Sakhi, 2017: 189-190) ، هذا المكان المليء باللاقداسة يتحول في لحظة الاستعداد للموت إلى فضاء مقدّس يمحو كل عِلل الشخصية وأوجاعها. تستعيد فيه كينونتها خارج سلطة القمع والاستبداد، يؤسّس لها هوية جديدة بديلة عن تلك التي أُغتُصِبت منه، هذا الشعور الخاص الذي يتشكّل، تخيّليا، في زمنية اللاوعي يتحرّر بإطلاق الحرية للرغبة في البوح عمّا هو مكبوت جرّاء الثقافة التسلطية للوطن، يستعيد (علي) حكاية شغفه وارتباطه المادي

والروحي به وهو في مرحلة انتهاك حدود الواقع، لتتحرّر فيه من زمنية الحاضر البائس وتمارس فعل البناء من الداخل، وإعادة تكوين روحه التي أشقاها الاغتراب عن الأرض التي نفته ولفظته.

شكّل الوطن في الخطاب السردي لهذا المكون الروائي استراتيجية مضادة تتنافى مع منهجية رؤية الشخصية وتبنّيها وجهة نظر لا تتوافق مع أيديولوجياته وأساليبه القمعية والتسلطية، وفي خضمّ هذا الاشتباك الرؤيوي والثقافي والسياسي تتكشّف آليات القمع والاستبداد في النسق السلطوي ليتنامى الحس الاغترابي في وعي وسلوك الشخصية التي تبدو واهنة لا تقوى على ((احتمال مأساتها الشخصية وعلى مجابهة العالم الخارجي بما هي عليه من ضعف، مما أدى إلى أن تبدو روحاً انهزامية استسلامية خلت من أية محاولة للبحث عن بديل أو طريق للخلاص))(فرحات، 2010: 298–299) (Farahat,2010: 298–299) إلا بالهروب واللجوء إلى حيز مكاني آخر تتحرّر فيه الذات من هواجسها وخوفها الذي هو امتداد لحالة القهر والاستبداد المتأصل في الوعي والسلوك.

المبحث الثاني: الزمان والمكان ودورهما في تجلي الاغتراب:

ـ الزمان وتجلي الاغتراب:

للزمن تأثيره الخاص على الشخصية؛ فمن خلاله تتجسّد الحالة النفسية والشعورية لها وبما يتضمنه من دلالات إيحائية وجمالية تؤدي دورها في بلورة الجانب الشعوري والانفعالي المصاحب لحركية الشخصية وتفاعلها مع المتن الحكائي.

تتأتى محورية الزمن ودوره الفاعل في سيرورة العملية السردية من تأثيره الدلالي وبما ينتجه من خواص جمالية وفنية تعمل مجتمعة في رصد العلائق الشعورية والنفسية المتحققة بفعل ما يتركه من رؤى وأفكار ومشاعر، هذا الزمن هو المهيمن على المسار النفسي للشخصيات المعبّر بصدق عمّا تكابده من آلام ، وما تحياه من ضياع واغتراب، إنه الزمن النفسي الذي يرتبط بالشخصيات ارتباطاً وثيقاً، ويدخل في نسيج حياتها الداخلية، ويتلون بتلون حالتها النفسية والشعورية، فيطول أو يقصر تبعا لتلك الحالة ، إنه زمن مطاطي يخضع

في تمدّده وتقلصه للانفعال وللحالة النفسية والشعورية. (ينظر: القصراوي، 2005: 150) (Al.Qasrawi,2005: 150) .

ومن هذا المنطلق المعرفي لدور الزمن وأثره الفاعل في بلورة مشاعر الشخصيات والكشف عمّا يختلج في دواخلها لجأ الكاتب إلى توظيفه كإيقاع نفسي يستمد دلالته من ارتباطه بالحالة النفسية للشخصية ، فينقلها إلى أزمنة تتراوح بين الماضي والحاضر والمستقبل، فكانت دراسة هذه الاستراتيجية السردية من خلال المفارقات الزمنية المتمثلة بالاسترجاع والاستباق ودورهما في تجسيد حالة اغتراب الشخصية والكشف عن مسبّبات ضياعها واحساسها بالظلم والتهميش.

1_ الاسترجاع وتجلي الاغتراب:

كان لتقنية الاسترجاع دورها الدلالي والفني في تشكيل مرجعية الاغتراب وتسخيرها من أجل الوقوف على إشكالية العلاقة بين الشخصية والواقع الذي تزخر تحت وطأته، إن الحاضر المشحون بالقسوة والغربة والضياع هو أحد مسببات اغتراب الشخصية الرئيسة (علي) الذي لم تجد سبيلاً لردعه إلا بالارتداد إلى الماضي علّه يجد فيه قوة تمكنّه من مواجهة الحاضر الذي رأى فيه بداية ضياعه وغربته وحتفه، فما أن وطأت قدماه أرض (دمشق) وتنشّق هواءها حتى ارتد سريعاً إلى الماضي، فتذكّر أمه (مكية الحسن) وعشقها اللامحدود لنسيم الشام وهوائها، يقول الراوي: ((**في الظل هب نسيم ندي منعش. أغمض عينيه وتشممه بقوة محاولاً حبسه في صدره، فهذا هو النسيم الأثير لدى أمه مكية الحسن الذي كانت تسميه " هوى الشام" كلما اشتد الحر في صيف بغداد**)) (صخي، 2017: 35-36) (Sakhi, 2017: 35-36) ، هذا الركون إلى الماضي يتناسب مع الحالة النفسية والانفعالية ومجسّداً لها، إنه النسيم الذي داعب مخيلة (علي) وأنفه نقله سريعاً إلى (بغداد) هذا الانتقال المكاني تأتّى بفعل الذاكرة التي حاولت أن تجد نوعاً من الترابط بين الماضي واللحظة الآنية، نظراً لوجود قرينة تربط بينهما إذ إن ذلك الاسترجاع كان ((استجابة لمثير ناتج عن التجربة

الحاضرة على المستوى النفسي أو الوقائعي))(الرقيق، 1998: 81) (Al.Rakek, 1998: 81) لأنه قد تحقق استجابة لموقف ينتمي إلى الزمن الحاضر للشخصية.

يعبّر (علي) عن رؤيته للزمن من خلال تجربة الاغتراب القسري عن الوطن، إذ ترك المنفى بزمنه الحاضر المرفوض شرخاً داخلياً في ذاته ؛ ليضفي على روحه مزيداً من القلق والضياع، أوجد بدوره انحرافاً في الزمن ليتجلى صوت الماضي صاخباً في زمن الشخصية الآني، هذه المشاعر هي وليدة الفعل الاغترابي المهيمن على وعي وسلوك البطل الذي حوّل الحياة إلى سلسلة من الأزمات والاشكالات، هناك في المنفى يفقد الزمن قيمته ودلالاته ويتحول إلى خصم حقيقي للشخصية يفتك بها ويترك أثاره على تكوينه النفسي والانفعالي، يقول الراوي ناقلاً معاناة (علي) عند انتقاله من (دمشق) إلى (لندن) إذ يتحد الزمان مع المكان ليجسّدا معاً تيه الشخصية وضياعها بين هذين البعدين بجانبيهما المادي والمعنوي: ((**فكر بأنه كان عليه أن يظل في دمشق فنساؤها أرق من الياسمين المنعقد فوق خدودهن، ونسيمها المنعش لا يزال يغمر جبينه بالندى. كما أنه طوال اقامته هناك، لم يشعر بأنه غريب، بل هو بين أهله وأصدقائه ومعارفه. لكنه كان مضطراً إلى المغادرة....**)) (صخي، 2017: 101) (Sakhi, 2017: 101)، لم يترك الحاضر المثقل بالألم والغربة والعزلة في نفسه إلا مزيداً من الإحساس بالفقد وصعوبة التماهي مع مكانه الجديد، إن استرجاعه لصورة (دمشق) وإعادة تشكيلها في مخيلته يجسّد بوضوح غربة روحه التي لا تزال تتوق إلى ذلك المكان الذي لم تغادر تفصيلاته ذاكرته.

وقد يعمد الكاتب إلى قلب دلالة الزمن ليتحول الماضي إلى وسيلة إدانة للواقع وانتصار للحاضر على الماضي المشحون بمعاني الاغتراب والموت، فكثيراً ما تثير اللحظة الراهنة في نفس (علي) مشاعر الخوف والقلق عندما يقارنها بواقع وطنه، فهنا في المنفى يتجلى الحب والصفاء والحياة الهانئة وهناك في الوطن لا مكان سوى للموت والضياع والاغتراب، فما أن يسمع صوت الفتاة (ساندرا) جارته في السكن وصديقها حتى تتراءى له صورة وطنه ومعاناة أهله: ((**احتضن وجهه بيديه يفكر في حياة هذي الشابين الهادئة ويقارنها بحياته المهددة على الدوام وحياة جيله الذي يعاني من دورة العنف السياسي، والتعذيب الوحشي في السجون، والحب الممنوع، والحرمان الجنسي، وانعدام الفرص، والقسوة، والانتهاكات، والاعتداء، وغياب التسامح، والعقاب العائلي بالضرب المبرّح أو الحرمان من الطعام لأدنى هفوة، تلك الحياة المتوترة الجافة**

القاحلة التي تفقد المرء صوابه وتدفعه لارتكاب أبشع الأخطاء)) (صخي، 2017: 9) (Sakhi, 2017: 9)، في هذا النص يدخل الوطن في دهاليز الضياع والنفي و الفناء بما أنتجته الذاكرة من صور واشكال كانت مخزونة في اللاشعور، فاللحظة الراهنة بما فيها من مشاهد ماثلة للعيان أجبرت الماضي على العودة مرة أُخرى إلى الوعي كل ذلك يحصل عبر الذاكرة التي استطاعت أن تعيد الماضي الى الذات. والاسترجاع بوصفه تقنية زمنية خاضعة لسلطة الموقف النفسي والشعوري للشخصية جعلها تحيا في زمنيين: أحدهما سعيد يمثله (الحاضر) والآخر أليم متعب يجسده (الماضي) حيث الضياع والتشتت في الوطن، تلك البقعة من الأرض التي أخذت بالانهيار على مرأى منه، فالأحلام تتحول إلى كوابيس والتآمر والرعب في كل مكان، إنه وطن مليء بالتناقضات جُبلَتْ نفسه بآلام هذا التناقض فَفَقَد الاتصال به وبات ممزقاً قلقاً تعتريه مشاعر الاغتراب والقطيعة التامة عنه (ينظر: العامري، 2015: 440) (Al.Amiri, 2015: 440) ، وهناك في المنفى الذي يجسّد اغتراب الزمن وتحجره الذي فشل في تحقيق التوازن النفسي والداخلي لـــــــــــ (علي) الذي هرب منه واستغرق في زمنه الذاتي الذي تغذيه الذكريات والآمال الموعودة بالعودة.

الزمن في المنفى ضياع وفَقد واغتراب وخوف من المجهول الذي يشكّل الموت أحد كوابيسه الكبرى، فأكثر ما تخشاه الذات في منفاها أن تموت بعيداً عن الوطن، إنه الإحساس الذي عاشه (علي) بعد وصوله إلى الحدود: **((راوده شعور يبعث على القلق بأنه سيواجه حياة صعبة وعرة. ومع التفكير الطويل بما سيلاقيه خيّل إليه أن تلك الخطوات الأولى على طريق المنفى ربما تقوده إلى حتفه))**(صخي، 2017: 35) (Sakhi, 2017 : 35) ، يصبح المنفى مرادفاً للموت ومع اقتراب النهاية تعود الذاكرة مرة أخرى ؛ لتمارس دورها في استحضار الماضي وتشكيل أبعاده النفسية والذهنية في وعي الشخصية ، فيبدأ الحنين إلى الوطن بالتشكّل: **((كان مستلقياً على السرير يحدق في العتمة، يصغي إلى أصوات الماضي وهي تجوس بين أزقة خلف السّدة وشوارع بغداد ومدينة الثورة ودمشق....))**(صخي، 2017: 187) (Sakhi, 2017: 187) ، هنا تتغير دلالة الوطن ؛ ليغدو الزمن محملّاً بمعنيين متناقضين في ارتباطه بالمكان: المنفى/ (الضياع والخوف) والوطن /(الاستقرار والأمن): **((استبد به شوق جارف إلى بغداد، إلى نهرها ومقاهيها وشوارعها وحدائقها، وفكر أنه سيشفى هناك، سيشفى من جميع أمراض المنفى التي بدأ يعاني منها منذ ذلك اليوم الذي وقف فيه عند معبر الرطبة الحدودي منتظراً السماح له بالشروع بالهجرة الجديدة، متتبعاً**

أثر أجداده المستكشفين الأوائل الذين قدموا إلى بغداد وسكنوا خلف السّدة قبل عقود. هناك سيشفى عندما يرمي فوق تلك الأرض التي تجتازها الرياح القادمة من الجنة، حيث تجلس أمه مكية الحسن عند الغروب، فيتمدد بجوارها ويضع رأسه على فخذها الرحيم))(صخي، 2017: 189–190) (Sakhi, 2017: 189– 190) . إن استرجاع (علي) لصورة بغداد في مخيلته هو انتصار على كل مسببات اغترابه، إنه الآن يشعر بالحنين إلى تلك الأرض إلى الوطن الذي يعيش في ذاكرته المتشبثة به، لقد أسهم الاسترجاع في رسم الأبعاد النفسية ، والذهنية للشخصية وتعريف المتلقي بحجم معاناته ، وتجسيد الدلالات المتحققة بفعل الزمن الذي ترك أخاديده على وعيها وسلوكها بما يتناسب والإطار العام الذي افتضاه السرد، فركونه إلى الماضي هرباً من الحاضر إنما هو بحث عن ركن يتكأ إليه يعيد إلى ذاته الضائعة بعضاً من كينونتها ووجودها، ولكن هذه الذات تدرك عقم الحاضر ، فلا تميل إليه لتتعلّق بالماضي لتكسر رتابة الواقع الآني وجموده ، فتلجأ إلى ((خلخلة في حركة الزمن المنتظم، يتجسد من خلالها صراع الذات مع الزمن ضد الفناء))(العامري، 2015: 441) (Al.Amiri, 2015: 441) والقهر والضياع في محاولة يائسة لإعادة تنظيم نفسها داخلياً للهروب من واقع لاإنساني، وهذا الهروب يتحقق بفعل الذاكرة التي هي ((أساس الوجود وجوهره، فهي امتداد الماضي في الحاضر، وصيرورتهما معاً لتشكيل الكيان الواحد، حيث لا يمكن فصل الإحساس المباشر في لحظة الحاضر عن الذاكرة "الماضي"))(باشلار، 1996: 24) (Bachlar, 1996: 24) .

2_الاستباق وتجلي الاغتراب:

لم يكن الاستباق حاضراً كحضور الاسترجاع في تحديد ملامح الاغتراب والوقوف على خصائصه الدلالية والفنية، إذ شغل الثاني حيزاً أكبر في السرد، ويرى (جيرار جنيت) : ((أن الاستشراف أو الاستباق الزمني أقل تواتر من المحسن النقيض (استرجاع) وذلك في التقاليد السردية القريبة على الأقل))(جنيت، 1997: 76) (Genet, 1997: 76) ، فضلاً عن هذا المبدأ السردي فإن ركون الشخصية إلى الماضي المشحون بالتناقض والتشتت والضياع حال دون التفكير بالآتي؛ فما تختزنه الذاكرة من مواقف وصور وأحداث تكفي للتعبير عن حجم المعاناة التي يحياها الوطن في ظل حكم تسلطي عبثي، فالقادم لا يمكن أن يكون أكثر قسوة وشقاءً من الماضي؛ لذلك فـــــــــــ (الاسترجاع) يثير الماضي ويمنحه استمرارية الحضور والتجسّد للتعبير عن حقيقة الذات ومكابدتها في ظل واقع لاإنساني.

وفي هذا المنجز الروائي ثمة نصوص قليلة جداً عمد إليها الكاتب لتوظيف هذه التقنية الزمنية التي تجسّد عمق معاناة الشخصية وضياعها وبحثها عن الخلاص الدائم، أو التعبير عن حالة إنسانية معينة أو موقف نفسي فردي أو جماعي، أو بحسب ما أراد الكاتب أن يوظف من أجله هذا النسق الزمني القائم على التنبؤ ، أو التوقع لسير الأحداث والمواقف السردية، فعلى سبيل المثال يتوقع أحد العرّافين الذين قدموا إلى البلدة مصير أهل (خلف السدة) وما تخبئه لهم الأيام من أحداث ووقائع بعد أن يتركوا بلدتهم ويتوجهوا إلى أرضهم الجديدة: ((**أمضى السحار في البلدة يومين لم يلتق خلالها إلا بعدد قليل من الشباب. وحين هم بالمغادرة وقف في وسط المقهى وقال بصوت مرتجف: "ستفرقكم الأيام")**)(صخي، 2008: 134) (Sakhi, 2008: 134).

يكشف هذا الاستباق القائم على التوقع بما ستؤول إليه الأحداث والمستقبل الغامض الذي يتربص بالناس، فهذا الرحيل عن أرض أجدادهم الأولى إنما هو انسلاخ قسري عن ماضيهم الذي تأسس منذ أن وطأت أقدامهم تلك الأرض، وهذا الانتقال الجديد المؤطر بمشاعر والخوف والقلق مما ينتظرهم تجسّد في قول ذلك العرّاف، هذا الشتات المادي ، والروحي الذي دخل في حيز الاستباق الداخلي سرعان ما تحقّق فما أن استقروا في مكانهم الجديد حتى شعر الناس بهوة واسعة وفراغ إنساني كبير يفصل بينهم: ((**كانت أسر متباعدة، تجهل بعضها جهلاً تاماً، غدت متجاورة لا يفصل بينها أي حاجز، الأمر الذي خلق احساساً بالاغتراب في الأيام الأولى**))(صخي، 2008: 149) (Sakhi, 2008: 149) ، هذا التحقق على المستوى القريب للأحداث السردية يكشف عن عقم الواقع الذي عوّل عليه الناس، فما حلموا به من رخاء وسعة تلاشى منذ اللحظة الأولى لوصولهم إلى الأرض الموعودة، إنّ القيمة الفنية والجمالية لهذا الاستباق جاء متوازياً مع مقصدية الكاتب المبنية أساساً على تعرية الواقع الجديد والكشف عن الأزمة الجمعية التي انبثقت بمعية هذا الانتقال المكاني ، وما صاحبه من تشوّه للقيم الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت راسخة في الوعي والسلوك قبل أن يشهدوا ذلك التحول الذي جعلهم يعيشون تحت نقيضين: الانسلاخ عن الماضي والاستغراق فيه، والرغبة الحقيقية في البحث عن الذات التي فُقِدت في خضمّ واقع بائس، إننا في حقيقة الأمر أمام جماعات بشرية((تنتابها الهواجس المستديمة وتسعى لخلق حالة من انسجام بين أجزاء ذاتها المتشظية والمتناقضة

أحياناً. إن البحث عن معنى الوجود لا يزال هماً مسيطراً عليها تحاول فيه فهم العالم وتناقضات ذاتها)) (المصري، 1997: 134) (Al.Masri, 1997: 134).

_المكان ودوره في تجلي الاغتراب:

يضطلع المكان بثقل دلالي ورمزي من خلال إحاطته بالأحداث وتأطيرها مادياً وفنياً وجمالياً، فضلاً عن رصد الفعل التأثيري له على البناء النفسي والانفعالي للشخصية مما يسهم بشكل أساس في اشراك المتلقي في اقتناص الدلالة المتوخاة من ذلك، ومن هنا عُدّ ((المكان عاملاً مساعداً في معرفة الشخصية القصصية بشكل أعمق، كما أن التأثير المتبادل بين المكان والشخصية يساهم في إيصال الدلالة المبتغاة إلى القارئ))(عبد الرؤوف، 2005: 111) (Abdul Raouf, 2005: 111) ، وعلى وفق هذا المعيار القائم على التأثير التبادلي بين هذين العنصرين السرديين سنتناول البعد الدلالي والمعرفي لهذا النسق السردي ودوره الفني والموضوعي في تشخيص ثيمة الاغتراب وتحديد الجانب النفسي والشعوري للشخصيات وأزمتها الذاتية والإنسانية.

ثمة أمكنة في هذا المنتج الروائي تخضع في هندستها وتكوينها المادي لأبعاد التجربة النفسية والذهنية للشخصية، فيغدو المكان بتفصيلاته المادية الضيقة والمغلقة مثيراً نفسياً لأزمة الذات التي أنهكتها الغربة والبعد عن الوطن ، فيتماهى الشعور بعبثية الحياة والشتات مع هندسة المكان وماديته لينتج عن ذلك التمازج صورة مشوهة لواقعها المليء بالألم والتناقض. إن التيه المادي الذي هيمن على المسار النفسي والوجودي للشخصية الرئيسة (علي) وانتقاله القسري إلى أمكنة مختلفة هرباً من بطش السلطة جعل علاقته بتلك الأمكنة متأسّسة على إشكالية كبرى قوامها التنافر والعدائية وإن وِجدت بين الاثنين أي وشائج إنما هي خاضعة لمبدأ القسرية والبحث عن الوطن البديل: ((**فتح باب غرفته، فتبدت معالمها بضوء مصباح آخر: مدخل طولي وُضعت فيه صوفا، يقابلها مكان مربع للاستحمام وقوفا، تجاوره ثلاجة صغيرة فوقها تلفزيون بحجم 14 إنشا، يلي ذلك سرير لشخص واحد تعلوه نافذة مغلقة باستمرار، تشبه نافذة زنزانة، تتصل بمستوى الأرض من الخارج. تأمل علي المكان فرآه لا يصلح للسكن الدائم....**))(صخي، 2017: 107) (Sakhi, 2017: 107) ، تتجلى حضورية المكان في رفد المتلقي بإرهاصات دلالية تتيح له الإحاطة التامة بمجمل ما يكتنف

الشخصية من مشاعر وانفعالات، هذه المقدمات تتراءى أكثر عندما ينجح الوصف في إنتاج الملامح النفسية والشعورية القابعة خلف جدران الأمكنة فتبدو تفصيلات المكان التي توحي بالضيق والانغلاق استراتيجية ذات نسق معرفي ، ودلالي تتوافق مع حالة الاغتراب النفسي الذي يكتنفها، فهذه الغرفة التي أطلق عليها (علي) اسم (مأوى التنين) تمثل وطناً بديلاً له، إنها ممارسة تعويضية دالة تسعى إلى تفكيك النسق الدلالي القهري والتعسفي للوطن الأصل الذي يحدد وضعية الذات المضطَهَدة ويحكم عليها بالتهميش والاقصاء ، ومن ثمّ يسلبها ذاتيتها الفاعلة.

تعد مدينة (بغداد) إحدى أهم الأمكنة التي أحدثت علاقتها مع الشخصيات في هذا المنجز الروائي إشكالية كبرى أحالتها إلى بؤرة مكانية قمعية وتسلطية، إنها مثال للمدينة التي تلفظ أبناءها وتحكم عليهم بالنفي والقهر الأبدي، وهي بذلك تنتهج استراتيجية بديلة لما يجب أن تكون عليه ، فتعمد إلى إعادة إنتاج صورة مغايرة لما رُسِمَت في ذهن الناس المقموعين والبسطاء الذين جاءوا من مكان مُعدَم ليجدوا أنفسهم في واقع أكثر بؤساً وتهميشاً، ففي رواية (دروب الفقدان) يتشكّل الوعي الثقافي والنفسي للشخصيات من خلال البعد التبادلي بين الاثنين فيغدو المكان نسقاً رمزياً يشحن الشخصية بطاقة نفسية وانفعالية تختزل أزمة الذات واغترابها، ففي (بغداد) المدينة/ الحلم تتلاشى آمال أولئك الذين رأوا في تلك البقعة من المكانية نهاية عذابهم وحرمانهم، يقول الراوي: ((**كان نايف الساعدي ورفاقه أبناء جيل طلع من الغضار والأحراش والرماد. إنهم أحفاد رجال تحدروا من أزمنة القصب والأسماك والمياه والقمح والنخيل. هربوا من الاضطهاد والملاحقة وعبودية الأرض ومواسم الزراعة التي تضاعف الخسائر والذل والديون، وجاءوا إلى الأمال البراقة الوارفة في بغداد وسكنوا عند خاصرتها: خلف سدة ناظم باشا على مقربة من ساحة الطيران**))(صخي، 2013: 19) (Sakhi, 2013: 19)، في هذا النص تبرز القوة الكامنة لهذا الحيز المكاني ودوره في تحقيق دينامية الانتماء والتفاعل بينه وبين أولئك القادمين من الماضي الحاملين على كاهلهم مأساتهم وآمالهم، إلا أن هذه الصورة البراقة لهذه المدينة تحولت بفعل التسلط والقمع إلى رؤية مشوهة محكومة بعوامل الاستبداد والقهر، هذا التشوه الذي أصاب المدينة الموعودة (بغداد) جعل ساكنيها الجدد ينفصلون عاطفياً وثقافياً عنها ليعيشوا أزمة ذات متشظية في وضع مزدوج بين حالتين: الخلاص من الماضي وما يمثله من فقر وعوز، والاصطدام بالواقع الذي يتجلى بالسلطة الحاكمة وما تمارسه من قمع واستلاب ضد هؤلاء الناس وما كانوا يطمحون إليه،

إن حيازة (بغداد) لهذا البعد الدلالي والرمزي على مستوى الخطاب السردي يحدد ملامحها البائسة والمشرقة في صورة بانورامية لا تخلو من تناقض، فهي تبدو في حالة من حالاتها المكان الذي يشع بالنور ويؤطر أحلام أولئك الناس المُعدَمين، وفي المقابل تتحول إلى صورة قاتمة تستنطق الثقافة السلطوية وتعرّي تحيزاتها الأيديولوجية والفكرية والاجتماعية، لذلك حين تتخلى عن أبنائها فإنها تقتل فيهم كل رغبة في الحياة، فتفقدهم إنسانيتهم وتحولهم إلى مسوخ على مستوى الوعي والسلوك: ((**في المنطقة الجديدة أصبح أولئك الفتية متجهمين نزقين، طباعهم حادة كأسلحتهم، مستلبين مقموعين في البيت والمدرسة والشارع والمقهى والسوق، ما خلق لديهم شعوراً بالتمرد والعصيات فانهمكوا في مواجهة السلطة، أية سلطة مهما كان نوعها. إنهم نبلاء ومتسولون، أوفياء وغدارون، صالحون وطالحون، يدافعون عن الشرف وينتهكونه، يمارسون قيم الفضيلة وينتصرون للرذيلة، يتطلعون إلى الفرح بقوة وحين يأتي يحولونه إلى مأتم.... حلموا كثيراً باليوم الذي يحصلون فيه على عمل لكنهم وجدوا أنفسهم يحيون في الطرقات بلا ظلٍ أو مورد....**))(صخي، 2013: 19–20) (Sakhi, 2013: 19–20) ، هكذا تفرض المدينة هيمنتها وتسلطها بما تمتلكه من أدوات البطش والتنكيل التي تأخذ طابعها في وعي الأفراد ، فتؤثر في إنتاج مواقفهم المتأثرة بتلك الأدوات، وثمة مزج بين مشاعر الشخصية وسلوكها وجوهرية المكان والصورة التي رُسمَت له، إذ جاءت المدينة صورة تحاكي نفسية تلك الشخصيات، فكما هي محمّلة بالتناقضات فكذلك ساكنوها الذين تنتابهم مشاعر شتى وسلوكيات يغلب عليها الازدواج والتنافر، كل هذه المعايير تعيد صياغة الواقع والسلوك لهؤلاء البشر لتجعل اندماجهم مع ذلك الواقع إشكالية أخلاقية وثقافية تعزّز فكرة الاغتراب القيمي والنفسي والسلوكي.

الخاتمة ونتائج البحث

بعد القراءة المستفيضة لثيمة الاغتراب في هذا المنجز الروائي وتحديد أبعادها النفسية والفكرية والثقافية والأيديولوجية والاجتماعية المهيمنة على وعي وسلوك الشخصيات، لا بدّ من حصر النتائج التي تمخضت عنها هذه الدراسة هي كالآتي:

- يُعدّ الاغتراب نسقاً مهيمناً على المسار النفسي والشعوري والفكري للشخصيات في هذا المنجز الروائي، إذ شكّل هذا المعطى الإنساني قوة ضاغطة اسهمت في إعادة توجيه الجانب النفسي والسلوكي لتلك الشخصيات ، وتحديد اتجاهاتها الفكرية والذهنية.
- استطاع الكاتب أن يؤطر الاغتراب تأطيراً فنياً عرّى من خلاله حقيقة العلاقة بين عالم الشخصية والواقع المحيط بها؛ والذي اتسمّ بالتناقض والتعارض والتصادم ؛ مما ولّد لديها شعوراً طاغٍ بالاغتراب والضياع.
- يتجلى الاغتراب عن الذات كنتيجة حتمية لما تكابده بعض الشخصيات من صراع داخلي وانقسام على الذات والتناقض بين الداخل والخارج، واحتدام المواجهة بين الرغبة والرفض والممارسة والفكر، كل تلك المعطيات أسست في داخله شعوراً حاداً بالضياع والرغبة في الهروب والانعزال القسري والبحث عن البديل المنشود للوطن والحبيبة.
- للنسق الجمعي هيمنته المطلقة على وعي الشخصية وسلوكها بما تضمنه من أعراف وعادات وأنساق معرفية وثقافية توجهه ، وتشحنه بطاقة معرفية مشوهة لا تسمح له برؤية شاملة وموضوعية للعيوب المعرفية والثقافية المحيطة به.
- يبرز الاغتراب العاطفي كنسق ثقافي واجتماعي مشوّه يكتسب وجوده التأثيري على وعي الشخصيات بما يخلّفه من قوة سلبية وردّة فعل تنأى بالشخصيات بعيداً عن حيزها الواقعي وطموحها في البحث عن الحب الموعود.
- شكّل الوطن إشكالية كبرى في وعي الشخصيات بما تضمّنه من نظم سياسية ، وايديولوجية وفكرية مستبدة أسهمت بفعلها التعسفي واللاأخلاقي في رفد الشخصية بمزيد من الإحباط والتشويه والاغتراب.
- لتقنية الزمن أبعادها الفنية ، والدلالية في رصد العلائق الشعورية والنفسية للشخصيات وتعرية كوامنها الداخلية، فهو المجسّد لما تكابده من ضياع وما تحياه من اغتراب، فكانت دراسة هذه الاستراتيجية السردية من خلال المفارقات الزمنية المتمثلة بالاسترجاع والاستباق ، ودورهما في تجسيد حالة اغتراب الشخصية والكشف عن مسببات ضياعها واحساسها بالظلم والتهميش.

- اضطلع المكان بدوره الرمزي والدلالي في إحاطته بالأحداث ، وتأطيرها مادياً وفنياً وجمالياً فضلاً عن تأثيره الفعلي على البناء النفسي والشعوري للشخصيات، ومن هذا المنطلق المعرفي تتجلى القيمة الدلالية والمعرفية له في تجسيد ثيمة الاغتراب وتحديد الجانب النفسي والشعوري لها وأزمتها الذاتية والإنسانية.

المصادر والمراجع

- البارودي، محمد: الرواية العربية والحداثة، دار الحوار العربي للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، الطبعة الثانية، 2002م.
- باشلار، غاستون: جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، الطبعة الثالثة،1996م.
- بن سالم، عمر: الإسقاط الفني في التأليف المسرحي، عمر بن سالم، مجلة المسارات التونسية، العدد (28) تونس، 1986.
- جبر فرحات، مريم: الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني، د. مريم جبر فرحات، مجلة جامعة دمشق، المجلد(26) العددان الثالث والرابع، 2010م.
- جنيت، جيرار: خطاب الحكاية، بحث في المنهج، جيرار جنيت، ترجمة: محمد معتصم و عمر حلي وعبد الجليل الأزدي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية، 1997م.
- الحميري، عبد الواسع: الخطاب والنص (المفهوم، العلاقة، السلطة)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2008م.
- خليل، غادة: الاغتراب في أدب حيدر حيدر (1968_1995)، الناشر: الجامعة الأردنية، الأردن، 1992م.
- رجب، محمود: الاغتراب سيرة ومصطلح، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1993.
- الرقيق، عبد الوهاب: في السرد (دراسة تطبيقية)، دار محمد علي الحامي، تونس، الطبعة الأولى، 1998م.
- زكريا القاضي، عبد المنعم: البنية السردية في الرواية، الناشر عن الدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، الطبعة الأولى، 2009م.
- شاخت، ريتشارد: الاغتراب، ترجمة: كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980.
- شتا، السيد علي: نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، عالم الكتب، (د.ت).
- الطالب، عمر محمد: الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية، دار العودة، بيروت، 1971م.
- الطيب قزيمة، فاطمة: الاغتراب في شعر محمد الشلطامي، المجلة الجامعة، ليبيا، العدد السابع عشر، المجلد الثاني، أغسطس 2015.
- عاشور، رضوى: الطريق إلى الخيمة الأخرى، دراسة في أعمال غسان كنفان، دار الآداب، بيروت، 1977.

- العامري، إيمان: اغتراب الزمن وانشطار الذات، قراءة في رواية نجوم أريحا لليانة بدر، مجلة المَخْبَر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد (11)، جامعة بسكرة، الجزائر، 2015م.
- عبد الرؤوف العبد الله، يحيى: اغتراب الشخصية الروائية (دراسة في روايات الطاهر بن جلون الروائية)، دار الفارابي، عمان، 2005م.
- عبيدي، مهدي: جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه (حكاية بحّار_ الدّقل_المرفأ البعيد)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م.
- عليان، حسن: البطل في الرواية العربية في بلاد الشام منذ الحرب العالمية الأولى حتى 1973، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مطبعة الجامعة الأردنية، الطبعة الأولى، عمّان، 2001.
- الغذامي، عبد الله: النقد (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 2005.
- القصراوي، مها حسن: الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، الطبعة الأولى، 2005م.
- ماركوز، هربرت: الانسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988م.
- محمد حسن، حسن: الاغتراب عند ايريك فروم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1995م.
- المحمداوي، علي عبود: خطابات ألـــــــــــــــــ ((ما بعد)) في استنفاد أو تعديل المشروعات الفلسفية، مجموعة مؤلفين، منشورات الاختلاف ، الجزائر، الطبعة الأولى، 2013م.
- المصري، خالد: غائب طعمة فرمان (حركة المجتمع وتحولات النص)، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، الطبعة الأولى، 1997م.
- وطفة، علي: المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، مجلة عالم الفكر، المجلد (27) العدد الثاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998.
- ويست، بول: الرواية الحديثة، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981م.

ثلاثية عبد الله صخي (الروايات المدروسة)

- صخي، عبد الله: خلف السد، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى،2008م.
- صخي، عبد الله: دروب الفقدان، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، 2013م.

• صخي، عبد الله: اللاجئ العراقي، دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، بغداد، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، 2017م.

References

- Al-Baroudi, M. (2002). *Arabic Novel and Modernity*. Syria.Al-Hiwar Al-Arabi House for Publishing and Distribution.

- Bachlar, G. (1996). *The Dialectic of Time*. 3rd Edition. Translated by: Khalil Ahmed Khalil, University Foundation for Studies and Publishing.

-Ben Salem, O.(1986). Artistic Projection in the Playwriting, Omar Ben Salem, Tunisian Masarat magazine, Issue (28) Tunisia.

-Jaber Farahat, M.(2010). The Emigrant Sense in Novel Works by Ghassan Kanafani, D. Mariam Jaber Farahat, Damascus University Journal, Volume (26), Third and Fourth Issues.

- Genette, G.(1997). Narrative Discourse: An Essay in Method, Gerard Genette, Translation: Mohammed Moatasem, Omar Hali and Abdul Jalil Azadi, General Authority for Emiri Printing Press, Supreme Council of Culture, Second Edition.

- Al-Humeiri, A.(2008). *Discourse and Text*: *Concept, Relationship, Authority*. Beirut. Arab Foundation for Studies, Publishing and Distribution.

- Khalil, G.(1992). Alienation in Haider Haider Literature (1968-1995), Publisher: University of Jordan, Jordan.

- Rajab M.(1993). *Alienation Biography and Terminology*. 4th Edition. Cairo. Al Maaref Publishing House.

Al-Raqiq, A.(1998). In the Narrative: Applied study.1st Edition. Tunisia. Mohamed Ali Hami Publishing House.

- Schacht, R.(1980). *Alienation,* Translation: Kamel Youssef Hussein. Beirut.Arab Institute for Studies and Publishing.

- Sheta, A.A.: The Theory of Alienation from the Perspective of Sociology, Alam el-kotob.

-Al-Talib, O. M.(1971). *The Realistic Trend in the Iraqi Novel* Beirut. Al-Awda Publishing House.

- Al-Tayeb Q.F.(2015). "Alienation in the Poetry of Mohammed al-Shattami", University Journal, Libya, No. 17, Volume II, August.

- Ashour, R.(1977).*The Road to the Other Tent: A Study in the Works of Ghassan Kanafan*. Beirut. Al-Adab Publishing House.

- Amri, I. (2015).the Alienation of Time and the Fission of the Self: A Reading in the Novel of the Stars of Jericho by Liana Badr. Journal of Laboratory, Research in Algerian Language and Literature, No. 11, University of Biskra, Algeria.

- Abdul Raouf A.Y.(2005).*The Alienation of the Fictional Character:A Study in the Novels of Taher ben Jalloun.* Amman. Al-Farabi Publishing House.

- Obaidi, M.(2011).*The Aesthetics of the Place in Hanna Minh's Trilogy :The Story of the Seaman, Dagal, The Remote Harbor*. Damascus. Publications of the Syrian General Book Association, Ministry of Culture.

- Olayan, H.(2001). *Hero in the Arabic novel in the Levant since World War I until 1973*. !st Edition. Amman. Arab Foundation for Studies and Publishing, University of Jordan Press.

.- Al-Ghutami, A.(2005). *Criticism: Reading in Arabic Cultural Formats.*3rd Edition. Beirut. Arab Cultural Center.

- Al-Qasrawi, M. H.(2005). *Time in the Arabic Novel*. 1st Edition. Amman. Arab Foundation for Studies and Publishing.

- Marcus, H.(1988). *One-Dimensional Man.*3rd Edition. Beirut. Translation: George Tarabichi, Dar Al-Adab.

- Mohamed Hassan, H.(1995).*Alienation in Eric Fromm*. 1st Edition. Beirut. University Foundation for Studies, Publishing and Distribution.

- Mohamadawi, A. (2013). Letters of ((post-)) in the Exhaustion or Modification of Philosophical Projects.1st Edition. Algeria.

- Al-Masri, K.(1997). *Gha'b Tohma Farman: Community Movement and Text Transformations.* 1st Edition. Syria. Dar Al-Mada for Culture and Publishing.

- Watfa, A. (1998). The Emigrant Aspects of the Arab Personality, Alam Al-Fikr Magazine, Vol. 27, No. 2, National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait.

Weest, Paul, (1981), Modern Novel, Translated by: Abdul Wahed Loloa, Al-Rasheed Publishing House.Baghdad.

Abdullah Sakhi's Trilogy (studied novels)

- Sakhi, A.(2008).*Behind the Dam*. 1st Edition. Syria. Al-Mada House for Culture and Publishing.

- Sakhi, A.(2013). *Paths of Loss*. 1st Edition. Syria. Al-Mada House for Culture and Publishing.

- Sakhi, A (2017).*Iraqi Refugee*. 1st Edition. Syria. Damascus, Baghdad. Al-Mada House for Media, Culture and Arts.